

## بنية الشخصية في رسالة "التوابع والزوابع"

لـ "ابن شهيد الأندلسي"

د. محمد عبد الهادي.

أ. فاطمة الزهراء عطية

جامعة بسكرة -

### الملخص

يُعالج هذا المقال بنية الشخصية في رسالة "التوابع والزوابع" للشاعر الكاتب الناقد الأندلسي "ابن شهيد"، وقد تم تناول الشخصية في الرسالة من خلال تقسيم الشخصيات، بيان بعديها الداخلي والخارجي.

وتم التوصل إلى ثراء "التوابع والزوابع" بشخصيات سردية متنوعة، وفاعلة في الأحداث، متحركة بين حضورها الأساسي مرة، وحضورها الثانوي مرة ثانية، وأخرى ذات حضور هامشي، وصُورت بمظاهر خارجية، وأحوال داخلية ساهمت في تبين خطية "ابن شهيد" الشعرية والنثرية والنقدية.

### Résumé

Cet article traite la structure du personnage dans la lettre intitulée "Les suites et les tempêtes" d'Ibn-Chouhaïd; poète, écrivain et critique andalousie.

La démarche suivie s'est basée sur les points suivants:- La répartition des personnages. - La détermination de leurs sens internes et externes.

On a pu dévoiler la diversité de personnages narratologiques dans la dite œuvre, qu'ils soient, d'une part, actifs sur le plan actionnel ou mobiles sur le plan existentiel (présence). D'autre part, secondaires où la présence n'est que marginale.

La mise en image des manifestations externes et internes a amplement éclairé la spécificité poétique, prosodique et critique d'Ibn-Chouhaïd

### 1- تمهيد نظري:

تعتبر الشخصية أحد المباحث الرئيسة المكونة للخطاب السردية فهي تمثل وفي كل الحالات، موضع اهتمام، ونقطة تركيز تقليدية، ومتوارثة للنقد القديم والمعاصر<sup>(1)</sup>. فغني عن القول إن الشخصية من "أهم مكونات العمل الحكائي؛ لأنها تمثل العنصر الحيوي الذي يضطلع بمختلف الأفعال التي تترايط، وتتكامل في مجرى الحكاية"<sup>(2)</sup>؛ فهي عموده الفقري الذي ترتكز عليه.

وقد "تباينت آراء الدارسين، والمنظرين حول مفهوم الشخصية، ودراستها، وهذا راجع إلى اختلاف الرؤى، والمناهج التي اعتمدها، وإلى اختلاف الزوايا أيضا التي كان

التناول من خلالها" (3). ويمكن في هذا السياق أن نتوقف عند بعض آرائهم، فنجد "فليب هامون Philippe Hamon" قد قدّمَ تصورات رائدة فيها، ومقولة الشخصية عنده "ليست مقولة أدبية محضة، هي مؤنسة بشكل خالص، كما أنها ليست مرتبطة بنسق سيميائي خالص، ويقوم القارئ بإعادة بنائها" (4)؛ فهو يُفرغها من أي حُكم جاهزٍ "ويمكن تحديد الشخصية بأنها مورفيم\* فارغ، أي بياض دلالي لا تُحيلُ إلا على نفسها، إنها ليست مُعطى قبلياً و كلياً، فهي تحتاج إلى بناء، بناء تقوم بإنجازه الذات المستهلكة للنص زمن فعل القراءة، هذا المورفيم الفارغ يظهر من خلال دال لا متواصل، ويُحيل على مدلول لا متواصل" (5).

أما "ميشال زيرافا Michel Zeraffa" فقد ميّز بين الشخصية الحكائية (personnage) والشخصية في الواقع (personne) حيث اعتبر "الشخصية الحكائية علامة فقط على الشخصية الحقيقية؛ إن بطل الرواية هو شخص (personne) في الحدود نفسها التي يكون فيها علامة على رؤية ما للشخص" (6)؛ أي إن الشخصية الروائية لا تعكس فعلاً الشخصية الحقيقية - الواقعية - بل تحاول ملامستها فقط، أو الاقتراب منها. أما "رولان بارت Roland Barthes" يُعرّف الشخصية بأنها "نتاج عمل تأليفي" (7)، فهو يقصد أن "هويتها مؤرّعة في النص عبر الأوصاف، والخصائص التي تستند إلى اسم علم يتكرر ظهوره في الحكاية" (8). ثم إن الشخصية حسب التحليل البنيوي المعاصر "بمثابة دليل (signe) له وجهان؛ أحدهما دال (signifiant)، والآخر مدلول (signifié)، فتكون الشخصية بمثابة "دال" عندما تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخص هويتها. أما الشخصية كـ "مدلول" فهي مجموع ما يقال عنها بوساطة جمل متفرقة في النص، أو بوساطة تصريحاتها، وأقوالها وسلوكها" (9). وهكذا فإن صورتها لا تكتمل إلا عندما يكون النص الحكائي قد بلغ نهايته، ولم يعد هناك شيء يقال، ولهذا السبب لجأ بعض الباحثين إلى طريقة خاصة في تحديد هوية الشخصية الحكائية تعتمد محور القارئ، لأنه هو الذي يكون - بالتدريج وعبر القراءة - صورة عنها، وذلك بوساطة مصادر إخبارية ثلاثية هي:

ما يُخبر به الراوي.

ما تُخبر به الشخصيات ذاتها.

ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات.

ويترقب عن هذا التصور أن تكون الشخصية الحكائية الواحدة متعددة الوجوه،

وذلك بحسب تعدّد القراء، واختلاف تحليلاتهم (10).

ثم تحول الاهتمام بعد ذلك في دراسة الشخصية بعدة تصنيفات للشخصية: أنواعها، وتطابقها، وتقاطعها (11). ومعنى هذا أن هناك تصنيفاً للشخصية حسب ثباتها وتطورها، فالشخصية الثابتة (السطحية) هي التي "لا تؤثر فيها حوادث القصة" (12) أي لا تتغير طوال السرد، والشخصية المتطورة (النامية) فهي التي "تتكشف لنا تدريجياً خلال القصة، وتتطور حوادثها، ويكون تطورها نتيجة لتفاعلها المستمر مع الحوادث" (13).

وهناك تصنيف آخر للشخصيات، وهو ذاك الذي ينظر "إلى أهمية الدور الذي تقوم به الشخصية في السرد، فإذا كان الدور مهماً ومُلازماً للسرد فهي شخصية رئيسية، ومركزية ومحورية (...). حيث إن هذه الشخصية هي العماد الأساس، والركيزة القوية لبنية السردية، وهي الدافع القوي للمسار السردى، وحضورها طاغ من أول السرد إلى آخره" (14).

وإذا كانت الشخصية ذات دور مرحلي، سُميت بالشخصية الثانوية أي "الشخصية المُكثّفة بوظيفة مرحلية Fonction épisodique، والتي تظهر في البرنامج السردى على فترات متقطعة" (15).

ثم تعددت التصنيفات بعد ذلك، فظهرت تقسيمات للشخصية تستند إلى "أبعاد تنظيرية مهمة مثل تقسيمات (أدوين موير) ثم (فورستير) فـ (لوكاتش) ثم (فيليب هامون) وأخيراً (تودوروف)، وهي تقسيمات اعتمدت على النموذج الدرامي أو الفني أو الوظيفي أو السيكلوجي" (16)، وقبل أن نتوقف عند بنية الشخصية في رسالة "التوابع الزوابع"، ومختلف تقسيماتها ودلالاتها، نُقدم هذه القراءة للرسالة.

## 2- قراءة في رسالة "التوابع والزوابع":

تعتبر رسالة "التوابع والزوابع" لـ "ابن شهيد الأندلسي" واحدة من الآثار النثرية القديمة في الأدب العربي، وهذه الرسالة لم يُعثر إلى حد الآن على مخطوطة لها، وإنما بلغ إلينا منها ما أثبتته "أبا الحسن علي بن بسام الشنتريني الأندلسي" في القسم الأول من كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" (17)، وهذا عندما مهد لإدراج ما اختاره منها بقوله: "فصول من رسالة سماها بـ"التوابع والزوابع"، وإن صدرت عنه مصدر هزل، فتشتمل على بدائع وروائع" (18).

وكان يحذف أشياء من الرسالة "مثل رسالة في صفة البرد والنار والحطب، فقد أشار إليها في رسالة "التوابع والزوابع" ولم يشبها، واحتفظ لنا بها الثعالبي في يتيمة الدهر" (19). وقد أخذ الباحث "بطرس البستاني" هذه الفصول ونشرها في كتاب أطلق عليه اسم "رسالة التوابع والزوابع"، ثم قسمها إلى مدخل وأربعة فصول، عرّف هذه

الأقسام تسهيلاً لجمهوره القراء كما يرى، يقول: "فأرأينا أن نقسمه بحسب أغراضه، إلى مدخل وأربعة فصول، وجعلنا عنوان الفصل الأول: توابع الشعراء، والثاني: توابع الكتاب، والثالث: نقاد الجن، والرابع: حيوان الجن. وهي عناوين تقبل الزيادة بعد العثور على نسخة كاملة لهذه الرسالة الحسنة" (20).

ويرى "بطرس البستاني" أن "القسم الأول من كتاب الذخيرة طبع في مجلدين بالقاهرة، أولهما سنة 1939م، وتولت نشره كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول، وفيه فصول "التوابع والزوابع"، فاعتمدنا عليه في إخراجها كتاباً على حدة" (21).

وكان الداعي إلى إنشائها أن كاتبها "ابن شهيد" لم ينل من أدباء عصره وعلمائه إلا النقد والتجريح، فأحس بأنه لم يكرم التكريم اللائق به، مع أنه نابغة في الشعر والنثر - في رأيه - فأراد أن يرضي غرور نفسه، ويعطيها حقها، ولو في عالم الخيال والجن، فاخترع شياطين للشعراء المشهورين، وتوابع للكتاب النابهين ليسمعهم من شعره ونثره ما يحملهم على الاعتراف له بالتفوق والعبقريّة، وفي الوقت نفسه وجدها فرصة سانحة ليثأّر لنفسه ممن نالوا منه؛ كـ "أبي القاسم الإفيلي"، فحمل في رسالته على أمثاله، حملت شعواء فيها سخريّة لاذعة، إنه حقق هدفه بالنيل ممن حملوا عليه من نقاد عصره، وحقّر شأنهم وأحمد ذكّهم، كما أرضى غروره، وإعجابه الشديد بفنّه وعبقريّته" (22).

وقد اختار لرسالته اسم "التوابع والزوابع"\*\*\*؛ لأنه جعل مسرحها عالم الجن، واتخذ كل أبطالها - فيما عداه وصديقه "أبي بكر"\*\*\* - من الشياطين أو الجن، "ولذلك يتطابق اسمها مع مضمونها" (23)، وهكذا ندرك بوضوح كيف "هداه خياله الخصب إلى كتابة قصته، وفيها يلتقي بجني اسمه "زهير بن نمير"\*\*\*\*، فتتوثق الصداقة بينهما ويحمله "زهير" على متن الجو إلى أرض الجن حيث التقى هناك بتوابع الشعراء المشهورين، والكتاب المبرزين، كما التقى بشياطين بعض خصومه من معاصريه (...). ويجري "أبو عامر" مع كل هؤلاء التوابع محاورات طريفة، ويسمعهم ألواناً من شعره، وفنونا من نثره" (24).

ثم ينتقل مع تابعه إلى "مجلس من مجالس الجن يدور الحديث فيه حول الموازنة، والنقد لأقوال مشاهير الشعراء من جاهلين وإسلاميين وعباسيين وغيرهم" (25). وفي القسم الرابع: "منظران بينهما بعض التشابه، ففي المنظر الأول: يقوم "أبو عامر" بجولة مع "زهير" في أرض بها حيوان الجن من بغال وحمير، وهنا يُظهر "أبو عامر" براعته ومبلغ معرفته بعالم الحيوان وعاداته وطباعه. وقد حكى بينهم عندما اختلصوا حول قطعتين شعريتين غزليتين إحداهما لبغل محب، والأخرى لجمار عاشق. أما في المنظر الثاني: فهو

ينتقل إلى بركة ماء تسبح فيها إوزة، وهي تابعة لبعض شيوخ اللغة وقد تعرضت له الإوزة، وأرادت مناظرته في النحو والغريب. (26)

وتمضي قصة" التوابع والزوابع" إلى أن يخرج "أبو عامر" من كل هذه الجلسات الأدبية ظافراً؛ لأنه اصطنعها قاصداً منها التصدي لفحول الشعراء والناثرين.

رغم تجلي العناصر الحكائية في الرسالة إلا أننا سنقتصر على عنصر يبدو فاعلاً في أركان الرسالة؛ هو الشخصية نُعيد من خلالها تأسيس هذا المتن السردى.

3- بنية الشخصية في الرسالة:

على صعيد هذا المكون السردى الفاعل في أحداث الرسالة، سنعمد التقسيم

الذي يقوم على مستويات هي:

1- الشخصيات الرئيسة.

2- الشخصيات الثانوية.

3- الشخصيات الهامشية.

ونحاول من خلال هذا الثالوث أن نتوقف عند البُعدين الخارجى والداخلى

للشخصيات.

الشخصيات الرئيسة: نلمس في هذا النوع من الشخصيات حركيةً سرديةً جراء تكرار شخصيتي "أبي عامر" و"زهير بن نمير" أريد بها الدور الذي تؤديه هذان الشخصيتان باعتبارهما من الوحدات الفاعلة في سير الأحداث، وتفعيلها من خلال حوارهما الدائم مع توابع الشعراء والخطباء لإثبات جدارة، وألمعية الشخصية الأم "ابن شهيد" الذي اعتاد تابعه "زهير بن نمير" مرافقاً في كل رحلة مع أن دوره لا يتعد سوى التعريف بالأماكن والشخصيات.

وفي هذه الحالة نستطيع القول، إن الشخصية الأساسية الأولى "أبي عامر" تعتبر أكثر الشخصيات حظاً في الظهور، فهو بطل الرسالة و"الشخصية الرئيسة" فيها، ومحور الأحداث والحركة، وبؤرة التجربة، وفي فلكها تدور بقية الشخصيات الثانوية، منها تبدأ الرواية، وإليها تنتهي، وعلى لسانها تُحكى الرواية كلها" (27).

لقد ظهرت هذه الشخصية على مستوى الخطاب السردى بشكل مكثف، ولكنها لم تمنح نفسها حقها من الوصف الخارجى؛ إذ إنه أهمل هيئته الخارجية، وركز اهتمامه على ما تصدره نفسه من أفعال سيكون لها أكبر الأثر في حركية الأحداث داخل القصة، تاركاً لنا المجال لتتخيله فارساً، أو رجلاً عادياً، وسيما كان أم قبيحاً. ولكن على الرغم من محاولته "ابن شهيد" إخفاء مظهره الخارجى علينا إلا أننا استطعنا أن نكتشف ملامحه الداخلية، فمن خلال مناجاته النفسية من جهة، وحواراته مع التوابع

من جهة أخرى أحسنا ببعض الصفات الداخلية التي ميزته، فقد بدت واضحةً مقدرته وشجاعته على التجوال في أرض غريبة عنه دون أن يخشى أهلها؛ فهم توابع وشياطين من جنس "الجن"، وهو إنسي.

وكلما قرأنا الرسائل بدت لنا روح الغرور والكبر في ذكره لنسبه الأشجعي الذي لا يمل ذاكرًا له في ثنايا الرسائل، فهو الذي استطاع أن يوقف صاحب "أبي نواس" من سكره لمجرد أنه عرف أن نسبه يعود إلى بني أشجع.

وفي الحوار يبدو سلوك آخر لـ "ابن شهيد" يُبرز التربية الحضارية التي يتحلى بها، ففي تساؤلاته مع التوابع نراه يتواضع معهم، فيؤقّرهم ويجلهم خاصة إذا تعلق الأمر بكبارهم. وهذا الحوار والوقار اللذين يبديهما يعكسان حقيقة واحدة تتعلق "بحرية الفكر في المجتمع الأندلسي"، وكانت أحد أسباب ازدهار تلك الحضارة<sup>(28)</sup>، وذويوع ذكرها رغم اندثارها.

أما الشخصية الرئيسية الثانية في تفعيل الأحداث كانت شخصية التابع "زهير بن نمير" الذي وصفه "ابن شهيد" بالفارس الشجاع الذي تدل جميع ملامحه الخارجية على القوة، إذ تمثل في هيئة فارس "باب المجلس على فرس أدهم، ما بقل وجهه، قد اتكأ على رمحه"<sup>(29)</sup>، وهي صفات حاول "ابن شهيد" بثها في تابعه الذي يُعتبر صورة مصغرة لشخصيته، فهو فارس تخافه الأعداد؛ لأنه يُقلق راحتهم، مستعد للحرب أي لحظة.

إذن هي شخصية من خيال "ابن شهيد" اصطنعها لتكون ظلاً له؛ "إذ ترافقه أينما توجه، وحيثما حل، وثسهم في إغناء مقدمة القصة من خلال الحوار الذي دار بينهما"<sup>(30)</sup>. هذا التابع الذي وُضع - خادماً - خصيصاً ليُلبي رغبات "ابن شهيد"، لا يملك زمام أي أمر، بل يسمع ثم يُنفذ، وينصاع انصياعاً كاملاً لسيده.

2- الشخصيات الثانوية: إذا حاولنا تتبع ظهور هذا النوع من الشخصيات، فإننا نجدها أقل حضوراً من الشخصيتين الأساسيتين، فكل شخصية ثانوية تؤدي دوراً ثم تختفي لتحل محلها شخصية أخرى، وهكذا دواليك. فقد استعان "ابن شهيد" بشخصيات مساهمة في الإجازة التي تحاول افتكاكها منهم جميعاً، فكانت شخصيات توابع الشعراء والخطباء، كذا توابع نقاد الجن وحيواناتهم خير مؤد للدور الثانوي المساعد للدور الأساسي؛ فهي تكشف لنا عن مظاهر أو جوانب من الشخصيات الرئيسية؛ بمعنى أنها السبب في وجود رغبة "ابن شهيد" في التميز والتفوق، ثم تحقيق المجد الأدبي المنشود.

\* شخصية توابع الشعراء: يُحاول الراوي أن يرسم لبعض شخصيات توابع الشعراء صورة فرسان تغلب عليهم صفة الفروسية الحاملة لمواقف البطولة والشجاعة.

ويحق لنا تفسير هذا برجعنا إلى الذاكرة الشعرية العربية القديمة التي عرفت ضرورة هذه الصفة في حياة كل شاعر عربي، باعتبارها أمراً طبيعياً عندهم، ذلك أن هذه الصفة "كانت أهم مرتكزات الشعر والحياة" (31)، فنجد فيما نسوق تصويره لهؤلاء الفرسان أنهم جميعاً "حملت ألوية؛ فـ"امرؤ القيس" يحمل لواء إمارة الشعر، و"طرفت" يرفع لواء الفتوة، و"قيس بن الخطيم" لواء الأنفة وإباء الضيم، أما تابع "البحثري" فمع رفعه لواء الطبع الشعري". (32)

وتراه يسلب هذه الصفة وأثارها عن بعض الشعراء، إذ يراهم شعراء فحولاً لكنهم لا يعرفون سبيل الفروسية ومعانيها، فتابع "أبي نواس" مثلاً تابع مغرم بمجالس الشراب، وبمحاسن الخمر والكأس، وهذا دليل قاطع على أن "أبا نواس" اتخذ "تناول المتعة مذهباً عن علم، وبصيرة فهو يدرك ويعي ما يأتي منه، وما يذر، وقد سلك إلى تحقيقه" (33). مضيفاً إليه صفة الكبر والشيخوخة، فجاء في قوله: "شيخ طويل الوجه والسبلة" (34) مستثنياً إياه دون الشعراء الباقين الذين صورهم في هيئة فتیان يزدادون بهاء وحسناً.

**\*\* شخصية توابع الخطباء (الكتاب):** نلاحظ مع هذا النوع من التوابع أن هيئة الفارس الباسل تنمحي، ولم يعد لها مجال يُذكر، لتحل محلها هيئة السن ليبرزهم على هيئة شيوخ كبار أكل عليهم الدهر وشرب، أو هيئة فتیان يملؤهم الحسن والجمال، انطلاقاً من واقع ذهني داخله يُملي عليه هذه الرغبة في أن يبقوا هكذا أبداً.

أما عن الملامح الداخلية لا نستطيع التوقف عندها، لكن بوقفنا أمام الحوارات التي أجريت معهم استطعنا التعرف على أهم أوصافهم النفسية، ولامحهم الداخلية التي لم تبدو للظاهر العيان، بل تتكشف بامعان القراءة والتأمل، فهم توابع يحملون معاني الحقد والعداء لـ"ابن شهيد"؛ لأنهم سعوا للإطاحة به، من خلال نفيهم كل معاني الأدبية عنه، فما كان على "ابن شهيد" إلا أن وقف لهم متحدياً؛ لتركهم أخيراً يعترفون بقدرته على النظم والنثر، ومنها من تحمل داخلها صفة الكبر والغرور مستخفة بقدرات الراوي "ابن شهيد".

أما إذا تعلق الأمر بصاحب "إسحاق بن حمام" فله منزلة مكيئة في نفس "ابن شهيد"، فقد كان يقدره، ويرى له مكانة مستقبلية في دنيا العلم والأدب، فما كان من "ابن شهيد" إلا أن حمل له مشاعر الاحترام والاعتزاز.

**\*\*\* شخصية نقاد الجن:** ظهرت في مجلس نقدي عقده "ابن شهيد" في أرض الجن، فتراه يؤكد شجاعتهم دون وجود دلالة على هيئة الفرسان، فكلها مُنحت صفة القوة، والجبروت، إلا أنه لم يسهب في وصفها، بل استطعنا استنتاج هذه الصفة - القوة - وما

تحمله من معاني من خلال أسمائها. وما استعانت به إلا ليُبدل أن أحكامه النقدية، ومواهبه الأدبية التي أصدرها في هذا المجلس لا يستطيع أن يُواجهها أحد، وما إتيانه بهذه الأسماء إلا لتأكيد هذا، فكانت خير مُعين ليزيد تأكيداً على نسبة الشهيد الذي لا يضاهيه أحد.

\*\*\*\* شخصية حيوان الجن: بمزيد من الاحتكاك بآخر الرسائل، نلاحظ عودة "ابن شهيد" إلى التفصيل في وصف الهيئة الخارجية، والتدقيق في ملامحها، بمناسبة حديثه عن حيوانات الجن، فبدأت "الإوزة" ذات مظهر خارجي جميل فهي "إوزة بيضاء شهلاء، في مثل جثمان النعمان، كأنما دُر عليها الكافور، أو لبست غلالة من دمقس الحرير، لم أر أخف من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صباً، تثني سالفتها، وتكسر حدقتها، وتلولب قمحودتها، فتري الحسن مستعاراً منها، والشكل مأخوذاً عنها" (35)، ثم تعرض لمظهرها الباطني تلميحاً لا تصريحاً، ويظهر ذلك حين سماها تارة "العاقلة"، وأخرى "أم خفيف"، وهما اسمان متناقضان؛ إذ يشير الأول للعقل والرزاقية، أما الثاني فهو دليل الخفة والطيش. وكلا الاسمين يومئان لحقيقة واحدة؛ وهي ضعف هذه الشخصية التي تريد بناء مجدها الأدبي من خلال الخط من مجد وجهه الآخرين - وبخاصة "ابن شهيد" - فما كان منه إلا أن واجهها، وبيّن لها سخفها وحمقها، وما وجدت من منج لها غير الطيران، وبعبارة أخرى: الهروب من المواجهة.

أما الشخصية الثانية فتتمثل في "بغلة أبي عيسى" التي وصفت قبلاً بمظهر خارجي حسن كذلك، وكان أن تطابق وصفها الخارجي مع الداخلي، فهي فعلاً حسنة الباطن، طيبة الداخل، كيف لا؟ وهي بغلة صديقه الحميم "أبي عيسى"، وقد اتخذ الحوار بينهما طابع المودة، وأسلوب السخرية، وراحا يتطارحان الذكريات، وتسأله البغلة عن "أصدقائها من بغال الدنيا، فيجيبها في سخرية لاذعة أن من إخوانها من بلغ الإمارة، وأن منهم من انتهى إلى الوزارة" (36).

3- الشخصيات الهامشية: إذا أتينا إلى هذا النوع من الشخصيات لاحظنا لنا شخصيتان إن لم نكن مبالغين لاعتبرناهما شخصيتين أساسيتين؛ هما شخصية "أبو بكر"، و"المحبوبة"، اللتين استطاعتا أن تؤدي دوراً افتتاحياً للرسالة، فلولا حضورهما لما كانت الرسالة قد ظهرت، كيف هذا؟

إن حضور شخصية "أبي بكر" الذي كان ذا عداوة مع "ابن شهيد" شكّل حضوراً ذا قيمة في وجود رسالة "الثوابع والزوابع" ونشأتها، فلولا العداوة ما نشأت الرسالة. أضف إليه شخصية المحبوبة التي فتن أبو "عامر" بها، ثم فارقها إلى أن ماتت فأخذ في رثائها حتى تمثل له تابعه "زهير بن نمير"، فلولا هذه المرأة المحبوبة التي

جعله حزنه عليها يرثيها حتى ظهر له تابعه مبديا رغبة في مساعدته لإكمال الشعر، وبالتالي توافقهما الذي حدا بهما إلى الصحبة الدائمة، والتجوال في أرض "التوابع والتوابع".

فإذا تتبعنا حضور الشخصية الأولى، فإننا نجده لا يُصرح بمظهرها الخارجي، وإنما يكتفي بالكلام عن باطنها، فهي شخصية سلبية، حسودة تريد الحط من مجد "ابن شهيد"، نافية عنه نبوغه، عادة كلامه في النظم والنثر ليس في قدرة الإنس، بل إن له تابعة تؤيده، وزابغة تنجده.

أما الشخصية الثانية - المحبوبة - فقد ورد ذكرها مرة واحدة في مدخل الرسالة عندما راح يسرد لنا قصة أول هوى اشتد به كلفه، ثم لحقه ملل أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كان يهواه مدة ذلك الملل، فجزع وأخذ في رثائه يوما في الحائر، وقد انضرد فقال:

تولّى الجمأمُ بظبيّ الخُدُورِ      وفازَ الردىّ بالغزالِ الغريرِ  
وكنْتُ مِلْثُكْ لا عن قَلَى      ولا عن فسادِ جرى في ضميري  
كمثل مَلالِ الفتى للنَّعيمِ      إذا دامَ فيه، وحالَ السُّرُورِ. (37)

ولما ذكرها في النص لم يذكر لنا صفاتها الخارجية، ولا هو تحدث عن أهم صفاتها الداخلية، ولا ندري الأسباب التي تركته لم يذكر حتى اسمها، وهنا يفتح المجال للتخمين: من هذه المرأة؟

وثالث شخصية هامشية نتوقف عندها، كانت شخصية شيخ الجن الذي ورد ذكره مرة واحدة في القسم الخاص بتوابع الشعراء، وبعدها تعرّف "ابن شهيد" على تابعه، طلب منه "ابن شهيد" أن يأخذه لأرض توابع الشعراء والخطباء، فما كان من "زهير" أن ردّ عليه قائلا: "حتى أستأذن شيخنا" (38) وطار عنه، ثم عاد ليخبره بأن شيخه قد أذن له. فابن شهيد لم يتحدث عن هيئة هذه الشخصية وأوصافها، بل اكتفى بالإشارة إليها لأهميتها في نيل تذكرة القبول بالمغادرة إلى أرض التوابع، وتأصل هذه المغادرة ثم بجواد استقلا به كل من "ابن شهيد" و"زهير" ليرحلا عليه.

انطلاقا مما سبق، نستطيع الاستدلال على بعض الملامح الداخلية التي تسكن هذه الشخصية، فمن خلال تسمية "زهير" له بشيخ الجن لدلالة كبرى على مكانته التي يرهباها كل ساكن في عالم الجن؛ فهو شيخ يرمز للهيبة والوقار صنعها بقدرته وشجاعته في عالمه، فأصبح كل الجن يخشونه، ويحترمونه، لينتقل هذا الاحترام والوقار إلى عالم الإنس، وتم هذا بجعله شخصية لا تُرى، بل هي وراء ستار خفي، وتلتقي مع كل بني جنسها ولا إمكانية للقائها بعالم الإنس، فقد أرسل إليه - "ابن شهيد" -

"زهير" ليحاوره ولم يذهب هو؛ لأن هذه المخلوقات الخيالية المفترطة في الغرابة تفهم عن بعضها، دون الاهتمام بمخلوقات أخرى.  
خاتمة :

توفرت رسالة "التوابع والزوابع" على مكون الشخصية الذي من شأنه أن يقوي عملية السرد القصصي، فيجعل للرسالة حضوراً أدبياً، وجذباً للعديد من القراء، والمهتمين، نظير أسلوبها المحكم، ودقة ألفاظها، وبُعد مراميها الفكرية، والحضارية، والفنية.

الهوامش:

- (1) جميلة قيسمون: "الشخصية في القصة"، العلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2000م. ع13، ص195.
- (2) سعيد يقطين: قال الراوي "البنيات الحكائية في السيرة الشعبية"، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت: لبنان، الدار البيضاء: المغرب، 1997م. ص87.
- (3) الخامسة علاوي: العجائبية في أدب الرحلات، منشورات جامعة منتوري، [د.ط.]، قسنطينة، الجزائر، 2005 - 2006م. ص104.
- (4) نظيرة الكنز: "سيميائات الشخصية في قصص السعيد بوطاجين: الوسواس الخناس أنموذجاً"، ملتقى السيميائات والنص الأدبي، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2002م. ع2، ص143.
- \* المورفيم: هو المصطلح الأساس في التحليل الصرفي الحديث، حل محل الكلمة التي بنى عليها القواعديون أصول نظريتها في النظرية، وبالتالي هو وحدة صرفية قد تكون كلمة أو جزء من كلمة له قيمة دلالية على مستوى التركيب. ينظر محمد محمد داود: العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، [د.ط.]، القاهرة، مصر، 2001م. ص165.
- (5) فيليب هامون: سميولوجية الشخصيات الروائية، (ترجمة: سعيد بركراد)، دار الكلام، ط1، الرباط: المغرب، 1990م. ص09.
- (6) حميد لحداني: بنية النص السردية "من منظور النقد الأدبي"، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء: المغرب، بيروت: لبنان، 2000م. ص50.
- (7) محمد عزّام: شعرية الخطاب السردية، اتحاد كتّاب العرب، [د.ط.]، دمشق، سوريا، 2005م. ص09.
- (8) حميد لحداني: المرجع نفسه، ص51.
- (9) محمد عزّام: المرجع نفسه، ص09.
- (10) المرجع نفسه، ص9، 10. (بتصرف).
- (11) المرجع نفسه، ص10.
- (12) محمد عبد الغني المصري ومجد محمد الباكير البرازي: تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق، مؤسسة الأوراق، ط1، عمان، الأردن، 2002م. ص150.
- (13) المرجع نفسه، ص150.
- (14) السعيد جاب الله: نظام السرد في الرواية الجزائرية "التقليدية، النفسية، الجديدة"، (أطروحة دكتوراه دولة)، قسم الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 1425 هـ- 2004م. (مخطوط)، ص202.
- (15) المرجع نفسه، ص203.
- (16) محمد نجيب التلاوي: الذات والمهماز "دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهات الحضارية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د.ط.]، القاهرة، مصر، 1998م. ص160.
- (17) ابن شهيد الأندلسي: رسالة التوابع والزوابع، (تحقيق: بطرس البستاني)، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، 1387 هـ- 1967م. ص118، ص63.

- (18) أبو الحسن علي بن بسام الشنتري: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (تحقيق: إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1399 هـ-1979 م. ق1، م1، ص245.
- (19) محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، دار الكتب العلمية، ط1، بنغازي، ليبيا، 2001 م، ص253.
- (20) ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص63.
- (21) المصدر نفسه، ص63.
- (22) علي محمد سلامة: الأدب العربي في الأندلس "تطوره، موضوعاته وأشهر أعلامه"، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، لبنان، 1989 م. ص494، 495.
- \*\* التوابع: جمع تابع وتابعة وهو الجني والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب، والزوايح: جمع زويعت وهو اسم شيطان أو رئيس للجن، ومنه سمي الإعصار زويعت إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء في القاموس المحيط. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة العصرية، [د.ط.]، صيدا، بيروت، 1931 م. ج1، ص317.
- \*\*\* وقد فسر "ابن بسام" أبا بكر هذا بأنه "أبو بكر بن حزم". وتبعه في ذلك كثير ممن كتبوا عن "ابن شهيد". والمعروف أن "أبا بكر بن حزم" قد مات صغيرا، وقبل أن يؤلف "ابن شهيد" رسالته بزم من طويل؛ فقد مات في الطاعون الذي اجتاح قرطبة سنة 401 هـ، كما ذكر أخوه "أبو محمد بن حزم" في كتابه "طوق الحمامة". على أن صلت "ابن شهيد" ببني حزم، كانت بينه وبين أبي محمد و أبي المغيرة، ولم تعرف له صلة بأبي بكر هذا. فأغلب الظن أن الأمر التبس على "ابن بسام" حين رأى الرسالة موجهة لأبي بكر، وحين علم أن "ابن شهيد" كانت له صلة ببني حزم، وحين علم أيضا أن من بني حزم من كان اسمه "أبا بكر". والذي يمكن ترجيحه أن "أبا بكر" الذي وجه إليه "ابن شهيد" رسالته هو "أبو بكر" الكاتب المعروف بـ"أشكمياط". وذلك لأن هذا الكاتب بعينه قد نقد "أبا عامر"، وعابه بأنه يستبيح كنوز غيره. ينظر أحمد هيكل الأدب الأندلسي "من الفتح إلى سقوط الخلافة"، دار المعارف، ط14، القاهرة، مصر، 2004 م. ص380، 381.
- (23) فوزي عيسى: الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، [د.ط.]، الإسكندرية، مصر، 2002 م. ص09.
- \*\*\*\* اسمه "زهير بن نمير" وهو من أشجع الجن، أي أنه ينتسب إلى قبيلة أشجع الذي ينتسب إليها ابن شهيد، وكأنه يرى أن كل قبيلة إنسية لها ما يماثلها عند الجن. ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص10.
- (24) مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي "موضوعاته وفنونه"، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، لبنان، 1983 م. ص642.
- (25) علي محمد سلامة: المرجع السابق، ص497.
- (26) محي الدين ديب: ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، بيروت، 1417 هـ-1997 م. ص155.
- (27) عبد الرحيم حمدان حمدان: "الشخصية في رواية بقايا امرأة"، ديوان العرب، أبريل 2008؛ (<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article13805>)
- (28) نادر حقاني: "تحليل نص من رسالة التوابع و الزوايح إجازة امرئ القيس لابن شهيد"، التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003 م. ع79؛ (<http://www.awu-dam.org/trath/79/trath007=htm&doaly-footer>)
- (29) ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص89.
- (30) نادر حقاني: المرجع السابق، الموقع السابق.
- (31) عبد العزيز شبيل: "البنية القصصية في رسالة التوابع والزوايح لابن شهيد الأندلسي"، حوليات الجامعة التونسية، سوسة، تونس، 1988 م. ع29، ص158.
- (32) المرجع نفسه، ص159.
- (33) موهوب مصطفى: المثلالية في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، [د.ط.]، الجزائر، 1982 م. ص426.
- (34) ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص105.
- (35) المصدر نفسه، ص149، 150.
- (36) مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص672.

<sup>(37)</sup> محي الدين ديب: المرجع السابق، ص 82.

<sup>(38)</sup> ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص 91.